نزعة التمرد والبحث عن اللذة في الشعر الأندلسي عصر بني الأحمر

أ.م.د. محمد عبيد صالح السبهاني

كلية التربية الأساسية/ حديثة/ جامعة الأنبار

م.م ياسر فاضل مشرف

كلية الامام الاعظم

المقدمة:

تابع الأندلسيون مظاهر حضارتهم وإبداعاتهم الشعرية والحياتية فبرعوا في تصوير واقعهم المؤلم الملذ، فكوّنوا بذلك شواهد واقعية صادقة وانعكست بصورة صادقة لهذا التراث الذي امتد ثمانية قرون من الزمن، لذا وجدنا الشاعر الأندلسي أصبح يشكل ويصور منعطفاً نفسياً لما يتمحور في داخله من قضايا وصراعات متنوعة في عصر بني الأحمر الذي امتد قرنين ونصف من الزمن، فقد تطرقت دراسة هذا البحث إلى التمرد على الضغوطات السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية أثرٌ في إيجاد البديل أي التمرد باللذة التي انعكست صورها بشكل واضح على الشاعر كمحاولة للتحرر من قيود وتسلط وجدناها واضحة في أشعارهم وإن اجتماع هذه الضغوطات عل نفسية الشاعر، قد ولدت تكوين باعث البديل وهو اللذة الذي أدّى بالشاعر الأندلسي إلى أنْ يشعر بالقوة والقدرة وعدم العجز على مجاراة حياته.

نزعة التمرد والبحث عن اللذة

إن من الأمور المسلم بها هو أن لكل مجتمع قيمًا وأنظمة معروفة قديمة قدم البشرية، فمنذ أيام الإنسان الأولى لوجوده على هذه الأرض، وقعت حادثة عرضها القرآن الكريم بشكل واضح، هذه الحادثة هي قضية الصراع الذي حصل بين الأخوين قابيل وهابيل، ابنا أبينا آدم عليه السلام،نفهم من ذلك أن قضية الصراع والتمرد، قد نشأ أيضًا منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى أبانا آدام عليه السلام حينما أعلن إبليس اللعين عن تمرده وطغيانه لله عز وجل، وعدم الانصياع لأمره عز وجل حين أمره بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام، ونجد في أغلب الأحيان أن التمرد هو (نمط سلوكي مبالغ فيه خارج عن حد المألوف أو حد السواء، وهو شعور بالرفض لكل ما يحيط بالفرد وما يترتب عليه من سلوك قد يتصف بالعداء والكراهية والازدراء لكل ما اصطلح عليه المجتمع من قيم وعادات ونظم، أو هو السلوك الرافض لكل ما أستقر عليه وألفه من عادات وتقاليد)[١]، أو هو بمفهوم آخر (حالة دافعية تتولد نتيجة لتقييد حرية الفرد أو تهديده بالتقييد لها أثناء القيام بسلوك ما، بحيث تتجه هذه الدافعية نحو استعادة حرية الفرد في القيام بهذا السلوك الذي تم تقييده أو هدد بذلك التقييد، أما بصورة مباشرة ـــ القيام بالسلوك المحظور ـــ أو بصورة غير مباشرة ـــ تشجيع الآخرين للقيام بالسلوك المحظور ـــ أو القيام بسلوك مشابه له أو رؤية الآخرين يقومون به، أو تحريضهم على القيام به)[٢]. ويلاحظ باحث آخر بأن التمرد هو سلوك الانفعالات التي تكون مؤلمة يائسة، وهي في حالاتها المضطربة الهائجة مسوغة لذيذة، لأنها استطاعت أن تخفف من حدة التوتر والآلام المستبطنة، وذلك بالبوح وعدم الكتمان[٣]. أما البيركامي فيرى بأنه سلوك الفرد إلى رفض الواقع المعاش، وهذا لا يتم إلا بعد تعرضه إلى اضطرابات أو سلوكيات معينة سواء أكانت سياسية أم اجتماعية، وإن حركة التمرد مسيطرة وموجهة (إلى رفض قاطع لتعدد لا يطاق، وإلى يقين مبهم

بوجود حق صالح فلا بد للتمرد من أن يكون مقترنًا بشعور المرء بأنه على حق بصورة ما، وفي مجال ما)[٤]. ويوضح البيركامي في موضع آخر ذلك السلوك المحظور المباشر وغير المباشر عبر تقسيمه التمرد إلى نمطين (تمرد الإنسان على حاله من حيث هو إنسان، وهذا ما يسميه بالتمرد الميتافيزيقي، وتمرد الإنسان على وضعه من حيث هو عبد، وهو ما يسميه بالتمرد التاريخي، النوع الأول الذي ينبع منه الشعور بعبث الوجود، وقد يؤدي إلى إنكار القيم جميعًا، أي إلى العدمية المطلقة، أما النوع الآخر فهو ما قد يتحول إلى ثورة جماعية)[٥]. وهكذا فإن التمرد في طبيعة الحال ترجمة لأحاسيس الشاعر ووجدانه بصوته العالي، حينما أعلن تحسيدًا لــ (لا) أكثر من مرة، وهذه الــ (لا) هي جواب مر عن خلجات نفس ثائرة تأبى الإذعان لأمر لا تقره أصلًا ولا تعترف بوجوده[٦]، نفهم من ذلك أن السلوكيات والضغوطات المعينة على الشاعر هي التي تؤدي إلى صراعاته الداخلية وإعلانه لــ (لا) هي ذاتها السلوك الرافض لكل ما استقر عليه المجتمع وألفه من قيم وعادات وتقاليد ومثل أدت به إلى الحالة الدافعية، ولاسيما حينما يجد الشاعر الأندلسي نفسه في مجتمعه يعيش معه كالمجتمع الأندلسي يسوده أثر الحروب والمنازعات والأهواء الجسام والاضطرابات المقلقة، وتكثر فيه المتناقضات، ويصيبه الظلم والاستعباد والإستبداد والقهر والاستغلال، فضلًا عن ذلك كبرياء نفسه الثائرة التي تأبى لانقياد لهكذا أمور، ويقينًا أن شعوره المتمرد يعمل على حق بصورة ما وفي هدف ما، لأن عدم إقراره ورفضه لمثل هذه الأفعال دليل قاطع وقناعة تامة بصواب ما يذهب وهو ما يقصده لمفهوم (اللذة والألم) فالتمرد هنا له قوانينه وقواعده التي ينطلق منها على وفق أرضية اجتماعية فكرية واضحة الحدود والمعالم. لذا فإن الشاعر الأندلسي المتمرس قد أجهد نفسه في سبيل الوصول إلى صوره الوافية الكافية التي يحياها مع تلك التحديات والصراعات المتناقضة من جهة، والرفض لهذا الاستغلال والأحباط من جهة أخرى، وبهذا كان لشعراء بني الأحمر رؤيتهم الخاصة للحياة والفن (ونقدهم للمجتمع وتمردهم عليه، أو على الأقل اقتحام ظواهر هذا المجتمع وإعطاء تفسير لها، ومنذ ذلك الحين أصبح المجتمع موضوعًا للتأمل، فأصبح الشاعر يحلل التجارب الموجودة حوله ويسمو بها)[٧] أو بمعنى آخر يحاول إيجاد مفاهيم ونظم جديدة تتناسب مع توجيهاته وأفكاره، كتلك النزعة الرافضة والمتمردة على الضغوطات السياسية، والاجتماعية، والفكرية، والاقتصادية، أثرُ في إيجاد البديل أي التمرد العبثي الذي يرى أن أقصى درجات التوتر من خلال تحطيم مجموعة من القيم ورفضها باللجوء إلى اللذة بوصفها تعبيرًا عن حالة الرفض؛ لأن نسيج الحياة بما فيها من قوانين وأعراف أصبحا بالنسبة إليه فوق طاقة الاحتمال[٨]، ولذا أخذ الشاعر الأندلسي يبحث عن بديل ما ينسيه الآلام والآهات نحو التحذير والرفض كمحاولة للتحرر من تسلط الملوك الذين يستعملونه الناس لملذاتهم ومتعهم الشخصية، وهذا ما يتضح لنا مثلًا في قول الشاعر أبو حيان الأندلسي:

لا تصحبَن ملَكًا أو من يلوذُ بهِ   وإن تَنَل منهمُ عزًا وتمكينا
يَستخدمونكَ في لذاتِ أنفسِهِم   ويذهبُ العمرُ لا دُنيا ولا دِينا[٩]

فالشاعر هنا استعمل أداة النهي (لا) بتحذيره من مصاحبة السلاطين حتى ولو نال منهم ما يبتغيه سواء كان من عز وتمكين، ويضيع العمر معهم بلا أجر في الدنيا ولا ثواب في الآخرة، وكأنه يريد أن يحفز المتلقي بهذه الأفكار والصور ليضمن تأييده له، واستثارة مشاعره وأحاسيسه الوجدانية معه، وبهذا يضمن تحقيق لذته المتمردة؛ لأن (هدف الفن ليس أن يصور عاطفة الفنان فقط، بل أن يحمل قارئه أو سامعه أو ناظره على أن يشارك الفنان عاطفته، فيفرح لفرحه أو يألم لألمه، أو يزهو لزهوه، أو يسخط لسخطه)[١٠]. ويطالعنا الشاعر أبو عبد الله بن جزي بإعلان تمرده من حاضره المؤلم المتمثل بأسباب الضغوطات السياسية والاجتماعية، ومن أمثال هذه الضغوطات الاجتماعية هو شعوره بالظلم والقساوة من بعض معاشر الناس، لذا راح ينأى بنفسه ويجد لذته في أن يعيش بعيدًا عن جو يسود فيه الزور والدسائس والكراهية بين أولئك الناس، فيقول:

رغبت بنِفسي أن أُساكن مَعشرًا   مقالهم زورٌ وودهُم مقتُ
يدسونَ في لينِ الكلامِ دواهيًا   هي السمُّ بالآلِ المشود لهالتُ
فلا درّ درُ القومِ إلا عصيبةً   إلي بإخلاصِ المودةِ قد متوا[١١]

وأما مظلمته من الجانب السياسي فتتمثل بسبب ما تعرض من ضرب وآلام وإهانة من السلطان الذي أشار إليهما ابن الأحمر في قوله: (وأصيب... في الأندلس بالمحنة النازلة؛ بالإحنة لما ضربه بالسياط السلطان يوسف ابن عم أبينا، من غير ذنب اقترفه)[١٢]، لذلك تظافرت أمامه ثلاثة أسباب هي كيد أصحاب الدسائس ونكد العيش، وتنكيل السلطان، كل ذلك أدى به للتعبير عن ألمه وسأمته من العيش في بلدة غرناطة، فيقول:

لقد سئمتْ نفسي المقامَ ببلدةٍ   بها العيشةُ النكداءُ والمكسبُ السحتُ[١٣]

ومن النقم السياسية والاجتماعية الأخرى التي تلقي بظلالها المؤلمة على المجتمع الأندلسي، ومن أمثال هذه النقم والصراعات التي عرضها لنا الشاعر عبد الكريم القيسي ولاسيما الخلاف بين المسلمين لما كانوا يعانون من تمرد داخلي وهيجان يدفعهم إلى عالم المجهول والمؤلم، لذلك تضافر أمامهم اتجاهان، فعلى اتجاه السلطة: بين ملوك بني نصر، فكثيرًا ما كان الخلاف والصراع يطول بينهم، مثلما حدث في ذلك الصراع الذي حصل عقباه بين أبي عبد الله الحسن وعمه، وذهب معه كل لذة الأمل في الأنتصار على العدو (وانحل كل عقد كان بين المسلمين وانفسخ، وخبث العامة من الذين ناصروا كل طرف على الآخر)[١٤].

وعلى اتجاه العامة: بين أهل المسلمين من فئات الأندلس، تجلى ذلك في تلك الفتن الداخلية والصراعات، كالتي حصلت (بين أهل غرناطة وبين أهل ربض البيازين، واشتد ضرامها وبلغ العدو ما أمله)[١٥]. وعلى الاتجاهين معًا: اتجاه السلطة والعامة تدهورت العلاقة بين السلطان والرعية، فهذا السلطان أبو الحسن (كان منغمسًا في الملذات، متواطئًا مع وزير له في أثقال كاهل المسلمين بالضرائب والمغارم)[١٦]، ولعل هذا وغيره من أسباب التفرقة والشتات، التي أدت إلى ضياع شمل المسلمين في الفردوس المفقود الأندلس هي التي أدت بالشاعر عبد الكريم القيسي إلى أن يعبر عن آهاته وآلامه، فيقول:

ونحنُ على نهجِ الشتاتِ مسيرُنا　　　لإدراكِ مالِ المسلمين أو المُلك
وعيشٌ إذا ما العقلُ راعه، راعَهُ　　　لكون مُعانيهِ من الضيق في ضنكِ
أفيقوا أفيقوا واهجُروا النومَ إنَّهُ　　　حديثٌ صحيحٌ ما أقولُ وما أحكي[١٧]

ومن الملاحظ أن الشاعر الأندلسي أدى وظيفته الشعرية المتمثلة بتجسيد الحاضر المؤلم ومحاولة الهرب منه على أتم وجه، وذلك بقدرته على التأثير في الحاضر وتزويدنا بالواقعين الفكري والمعرفي للعصر الذي يسيطر عليه فـــ (الشعر يمتلك قدرة التعبير عن تجارب الإنسان فردًا أو جماعة في إطار الصراع الإنساني خلال العصر الذي ينتمي إليه)[١٨]، فتمرد الحاضر ورفضه، قد يكون أحيانًا عبر رفض الواقع الفكري والاجتماعي المتعصب لمذهب أو رأي ما، إذًا إن حالة الصراع الفكري ليست مختزلة على زمن من دون غيره (وأكثر ما يحرك الشعر للخوض في القضايا الفكرية هو التعصب للرأي الذي ينبع من حب الإنسان للمذهب أو الفكرة التي اعتنقها وآمن بها ففي كتاب (روضة التعريف بالحب الشريف) حديث عن أهم الاتجاهات الفكرية المعروفة في الأندلس أي في القرن الثامن الهجري كالفلسفة والتصوف بأنواعه)[١٩]، إن الاحتجاج على هؤلاء وغيرهم لما هم عليه من مسائل فكرية متعددة ومختلفة، قد مكن للصراع والتمرد أن يستشري بينهم وبين أتباعهم، ويتخذ انعكاسات مختلفة مرفوضة في الوسط الاجتماعي الحاضر المعيش المؤلم، وقد جانب الشعر أنماطًا مختلفة للتمرد والرفض لهذا الواقع الفكري وبصور مختلفة لما يحرك نزعتي اللذة والألم، ومن ذلك قول الشاعر لسان الدين ابن الخطيب:

وقالوا: ظَفرنَا في الزّمانِ بخَاتمٍ　　　قد اجتمعت أوصافهُ الغرُّ في شَخصِ
فقلتُ لهم: إن صحَّ ما قد ذكرتمُ　　　فلا بدَّ أن يُحتاجَ فيه إلى فَصِ[٢٠]

المتأمل في هذين البيتين يجد أن ابن الخطيب يواجه من أسماهم بالممرورين، بسخرية يوري فيها بكتابي ابن عربي (فصوص الحكم) و(خاتم الأولياء).

والسخرية أسلوبًا للتحرر من الواقع الحاضر المؤلم أو لمواجهة معطيات ذلك الواقع الفكري فهذه المعطيات والأساليب كما يراها علماء النفس وسيلة تؤدي دورًا مهمًا في حياة بعض الناس بإنكارها للواقع أحيانًا واستبعادها للألم أحيانًا أخرى، فالشاعر مزود بالإمكانات والطرائق للهرب من شدائد الواقع، لذا يلجأ أحيانًا إلى نمط السخرية كي يتحرر من الآهات والآلام والمعاناة ولتعيد إليه لذة توازنه النفسي ولو لحين(٢١). أما الشاعر القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن منظور القيسي* (٧٥٠هـ) ، فقد جاء انتقاده الصريح بين رفضه للواقع والحاضر الفكري من خلال انتقاده بعض الناس في عصره من لذة التفاؤل وآلام التشاؤم مما لا يتخيله العقل ولا يقبله التفكير المنطقي، فيقول:

ما للعطاسِ ولا للفالِ من أثر فثق فديتُكَ بالرحمنِ واصطبرِ
وسلمِ الأمرَ فالأحكامُ ماضيةٌ تجري على السننِ المربوطِ بالقدرِ(٢٢)

ومن صور التمرد من الواقع الحاضر المؤلم فساد وتجاذباته الواقع الاجتماعي المتمثل في جور أخلاق بعض الناس وفسادهم الذي انعكس سلبًا على مشاعرهم وسلوكهم، لذلك أصبح الشاعر الأندلسي يهرب من الواقع الذي يعيشه، ذلك الواقع الذي انتفى معه لذة الأحترام والاعتزاز، فهذا الشاعر عبد الكريم القيسي يرى بأنه أصبح حالة دون الكلب مكانة في الواقع الذي يعيشه، وأن الكلب صار أعلى وأشرف منه حالًا، لأنه محمي من كل ألم وضرر يصيبه خلافًا لحاله(٢٣)، فيقول:

الكلبُ صارَ ببسطةٍ أعلى وأشرفَ من فقيه
أنّى فقيهٍ يعتلي لِمحلِّه أو يرتقيه
الكلبُ مالكه بِها من كلِّ ما يُخشى يقيه
وفقيهها من أهلها ما ساءَ منهم يتقِيه(٢٤)

فالشاعر هنا يتمرد على فساد الواقع الاجتماعي، ويرفض الحاضر المؤلم لفساد الناس وأولي الأمر أنفسهم وقد أدت الشكوى من سوء المصير لحياته مع الزمن وما يحمله من وضع اقتصادي مؤلم ومر إلى رفضه الواقع الذي لا يمكن تجاهله، وهذا الذي جعل الشاعر الأندلسي يجهش بالبكاء والحزن والألم على الذي ضاع منه والذي لا يستطيع امتلاكه ثانية، وقد يرى الشاعر نفسه وحالته من خلال رفضه للحالة الاقتصادية والمادية التي دفعت به إلى بيع كتابه لسد ما ينقصه من مستلزمات الزمن الضرورية، فيقول:

قَسما لولا معاداةُ الزمن واحتياجي مِن كتابي للثَّمنْ
ما بِهِ نفسي لبيعٍ سَمَحت ولو اعتضت به ملك اليمَنْ(٢٥)

وتدفع أنفة القيسي أو تمرده بالعزم على الرحيل وترك بلدته بسطة، لأنه يأبى العيش فيها ذليلًا فقيرًا ومتألمًا، وكثر فيها حساده وأعداؤه وتغير فيها الأصدقاء، فيقول:

خليليَّ ما مِثلي يُقيمُ ذليلًا ويحملُ من ضَيم الزمانِ ثقيلَا

وَيرضَى بعيشٍ لا يزال ببسطةٍ يُجددُ من خطبِ الهمومِ جَليلَا
فلا تعذُلاني في رحيليَ عنكما فإنّي لما ألقى عزمت رحيلَا
فقد سئمت نفسي المقامَ ببلدةٍ تغير فيها من تخذت خليلَا[٢٦]

ومن الشعراء من سلك مذهبًا في تمرده على الحالة المادية والفقر هو ابن ليون التجيبي، إذ اتخذ من ترك الأصدقاء من خلال نظرة ذاتية خاصة، تقوم على العزلة وعدم الأختلاط ووجد فيها سلامة الإنسان ولذة أنسه، وتلك في نظري فلسفة انهزامية تشاؤمية، سلكها بعض الشعراء هربًا من واقعه الاقتصادي المعيشي المؤلم، فيقول:

سلامةُ الإنسانِ في وحدتِهِ وأنسهُ فيها وفي حِرفتهِ
ما بقيَ اليوم صديقٌ ولا مَن ترتجي النصرةَ في صحبتهِ
فقر في بيتك تسلمْ ودَعْ من ابتلي بالناسِ في محنتهِ[٢٧]

وقد يأتي هذا الرفض للواقع الاقتصادي والمالي عند الشاعر الأندلسي بتجارب أخرى، نجده فيها متبرمًا في حياة لم تحقق فيها لذة السعادة، فأراد أن ينسي تلك الصورة المؤلمة في نسيان دائم لكل ما يجده سببًا لتعكير صفوة حياته، والصفوة والراحة التي وجدها في ذلك الطريق الذي سلكه في تمنيه للموت بألمه، كما يقول الرندي:

وقد لَذَّ الحمامُ وطابَ عندي وعيشٌ لا يلذُّ ولا يطيبُ
لحى اللهُ الضرورةَ فهي بلوى تهين الحر والبلوى ضروبُ
رأيت المالَ يسترُ كلَّ عيبٍ ولا تخفى مع الفقرِ والعيوبُ
وفقدُ المال في التحقيق عندي كفقدِ الروحِ ذا مِن ذا قريبُ[٢٨]

فالشاعر يتألم عندما يرى أن المال يستر عيوب الفرد، وأن الفقر والعوز يكشفها ويفضحها، لذا فهو يرفض هذا الواقع متخذاً الموت سبيلًا لراحته ولذته أمام حياة مليئة بالصراعات المتناقضة. ومن تناقضات صور الحياة الاقتصادية التي اكتشفها الرندي من خلال سعيه فيها وجهاده، هو أن العيش فيها لا يخضع لمنطق ولا يجري على قياس، ولذا فهو يتألم عندما يرى أن الحظ فيها هو سبب كل نجاح يصل إليه الإنسان، ومع غيابه تصبح حسناته سيئات، واكتشف أن الأريب لا حظَّ له فيها، لذا فهو يصارع برفضه لهذه الحياة متخذاً من لذة الحظ سبيلًا لعناد وتعادي كل ذي عقل[٢٩]، فيقول:

وقد أجهدتُ نفسي في اجتهادٍ وما إن كلُّ مجتهدٍ مصيبُ
وقد تجري الأمورُ على قياسٍ ولو تجري لَعاشَ بها اللبيبُ
كأنَّ العقلَ للدنيا عدوٌ فما يقضي بها أربًا أريبُ
إذا لم يُرزق الإنسانُ بختًا فما حسناتُهُ إلّا ذنوبُ[٣٠]

أما الشاعر أبو القاسم بن أحمد بن أبي العافية* (ت٧٤٥هـ)، في صراعه مع الفقر والغنى، فيقول مخاطبًا زوجته، فيقول:

أقلِّي فما الفقرُ بالمرءِ عاراَ ولا دار من يألفُ الهونَ دارا
ولا يكسبُ العزَّ إلا الغنى غنى النفس فلتتخذه شعارا
وما اجتمع الشملُ في غيره فيحسن إلا وساء انتشارا
فزهرة غيرك لا تنظري فيألم قلبُك منهُ انكسارا
وهزي إليكِ بجذعِ الرضى تساقطْ عليكِ الأماني ثِمارا(٣١)

المتأمل في هذه الأبيات يظهر أن زوجه لم تكن قانعة بالعيش معه، لذا راح يهرب إلى أسلوب الحث على الرضى بالقليل والصبر على ما قسم الله لهما، ويرى عزة المرء واجتماع الشمل لا يكسب بالغنى، وقد دعا زوجه أن لا تنظر على حال غيرها فيألم قلبها بالانكسار والحسرة، ومع هذا كله راح يستحضر قصة السيدة مريم العذراء عليها السلام والشاعر في هذا الاقتباس يحاول أن يصارع الحياة ويقيم على زوجته الحجة عبر الاقناع، فمريم في ولادتها النبي عيسى عليه السلام لم يكن لديها سوى التمر تقتات به أما المعاناة الناتجة عن التجزئة والصراعات الداخلية والحروب داخل المجتمع الأندلسي فكانت ذات وقع مؤلم عند بعض الشعراء الأندلسيين، إلا أن الشاعر استعمل أسلوب التمرد العبثي من خلال إغراقه بالخمرة والخلاعة والمجون ورفضه لقيم المجتمع الذي يعيش فيه؛ ليدل بذلك على طبيعة الشاعر الرافض لكل مصدر الشقاء والألم، والبحث عن المتعة واللذة، فتراه هنا رافضًا للواقع بتحديه للقيم الأخلاقية التي أصبحت لديه مصدرًا لآلامه في سبيل الحصول على اللذة الآنية(٣٢)، فهذا الشاعر لسان الدين بن الخطيب يصرح بالإسراف في مجونه بالخمرة، ولهوه مع المرأة، فهو يبيح لنفسه الحرام من أجل إرضاء ملذاته وسعادته، فيقول:

لا توقدِ المصباحَ واعلم أن لي من وجهِ من أحببتُهُ مِصباحَا
حث الكؤوسَ وهاتنيها قهوةً تنفي الهُمومَ وتجلبُ الأفراحَا
منكف فاتنةِ اللحاظِ غريرةٍ سُكرى الجُفونِ، وما سقين الراحا
هي روضةٌ تجنيك، بين لِثاتها خمرًا، ومن وجناتها تُفاحا
فإذا اعتنقت أو ارتشفت فإنَّما عانقت غصنًا وارتشفتَ أقاحا
وامزج بصرفِ الراحِ عذبَ رُضابِها ما ضرَّ أن خلفَ الحرامُ مباحا(٣٣)

المتأمل في هذه الأبيات يجد أن الشاعر يحث على انتهاب اللذات وسقي الكؤوس من يد المرأة التي تنسي عنه الهموم والآلام وتجلب له الفرح والسرور، ثم خلع بعد ذلك صفات التحفظ والوقار والنقاء، وانساق مع جو اللذة والأنس، وفي هذا تجسيد لموقف التمرد والتحدي لمجتمعه، عبر التهتك

الصريح والاستهتار بالقيم الإنسانية والأخلاقية، فهو يعلن أنه مستمتع مع اللذات حيث الخمرة والمرأة. وفي موضع آخر يصرح لسان حاله على العنان في اللذات واللهو، فيقول:

فلا تُنكروا أنْ هزَّت الريحُ مَنكبي وأذهلنِي وَجدِي عن الأهل والصَّحبِ
ففي سكرة الصهباء ما تَعلمونَه فكيف إذا انضافت إلى سكرةِ الحب
سأذهبُ في اللذاتِ مِلءَ أعنَّتي وأركضُ خَيل اللهو في طلقٍ رحبِ(٣٤)

وعلى النهج نفسه يسير تلميذه الوزير ابن زمرك في الدعوة إلى شرب الخمرة التي تكبل عقل الإنسان وتسيطر عليه، كونه منبع الهموم والآلام، وعلى دربهم يسير الشاعر عبد الكريم القيسي بالدعوة إلى ضرورة الاستمتاع بالدنيا واغتنام اللذات والتمتع بها فهي كسراب أو أضغاث أحلام، فيقول:

واغتنمْ من أطيبِ اللذ ذاتِ غُنمًا أيَّ غُنمِ
إنما الدنيا سرابٌ لاح أو أضغاثُ حُلمِ(٣٥)

أما الشاعر محمد بن الأزرق* (ت٨٩٦هـ) ، فيحاول أن يشق طريقًا يجسد حريته، لهذا راح يستعمل حرف النفي (لا) أكثر من مرة تجسيدًا لموقف الرفض، فهو يعلن أنه يدعو للمجون ويعاتب من يخالفه الرأي، ومثل هذا التحدي والتمرد على القيم الأخلاقية والإنسانية في سبيل الحصول على اللذة، فتراه يقول بهذا الشأن:

عمِ باتصالِ الزمنِ ولا تبالي بمَنِ
لا أمَّ لي لا أُمَّ لي إن لم أبرد شَجَني
وأخلعنَّ في المجو نِ والتصابي رَسَني
يا عاذلي في مذهبي أرداك شُربُ اللبنِ(٣٦)

ويستعمل الشاعر ابن فركون الأسلوب الحواري، متأثرًا بمجون عمر بن أبي ربيعة للتمتع واللذة مع المرأة، وهذا التمرد يعود إلى أخلاقه الخبيثة من جهة وابتعاده عن قيم واقعه ومجتمعه من جهة أخرى، وبهذا نلاحظ التصريح في التبذل والامتهان في هذا الحوار، فيقول:

وربَّ لائمةٍ تُلقي الملامَ على حُبِّ التي ودُّها طبعٌ ومكتسبُ
قالت: لما همت من بعدِ السُّلو بها فقلتُ: كلُّ فتى قد هزهُ الطَّربُ
قالت: تمتع ببدعٍ من محاسنها فقلتُ: قد سُدلت من دونها الحجبُ
قالت: أتخفَى عن الأبصارِ بهجتُها فقلتُ: هيهاتَ نورُ الشمس يحتجبُ
قالت: فراسل إذا عزَّ اللقاءُ وصِف فقلتُ: ليسَ تفي الأقلامُ والكتُبُ(٣٧)

إن الشعور المتولد من الاضطرابات والصراعات في الأندلس، ألقت بظلالها على الشاعر الأندلسي، مما ولد لديه سلوكًا فرديًا ونظرة ذاتية تقومان على أساس شعور الشاعر بقصر الحياة وتفاهتها وسرعة انقضاء الأجل، وإحساسه بضياع العمر وزوال الشباب، لذا عليه اغتنام لذة الحياة والتمتع بلحظات العمر الفائت، فراح يرتاد مجالس اللهو والشراب ويعاقر الخمرة بلهوه ومجونه، وقد تجلى ذلك بوضوح عند الشاعر ابن سهل الإشبيلي(٣٨)، وحازم القرطاجني(٣٩)، لذا فإن هذه السلوكيات العبثية المتمردة على القيم الإنسانية والأخلاقية والباحثة عن اللذة الدنيوية من خمر ومجون لم تكن هي المسيطرة على ذلك العصر أي عصر بني الأحمر، بل كانت هناك طائفة أخرى من الشعراء رفضت وبشدة ذلك السلوك الخاطئ، وهم الشعراء الملتزمون والزهاد الذين آثروا اللذة الروحية التي لا تخرج عن آداب القيم والأخلاق الفاضلة فتراهم معرضين عن لذة الدنيا وزوال الأشياء فيها من مباهج ومتع، فهذا الشاعر ابن خاتمة الأنصاري يعلن تمرده مع النفس الأمارة بالسوء قد يجعل أبياته لا تخلو من اللذة بالتمسك بالإيمان والصبر على مرضاة الله وطاعة وجهه الكريم، فيقول:

إذا ما دعتكَ النفسُ يومًا لريبةٍ ... فحاذِر عقابَ اللهِ فهو شديدُه
فصبر الفتى عمَّا يريد أخفُّ من ... تصبُّرِهِ كرهًا لِما لا يُريدُه(٤٠)

لقد جسد الشاعر في هذين البيتين الأمور المؤلمة والمريبة التي حذر الإنسان منها، وبين عقاب الله الشديد الذي يتطلب حضور اللذة، التي تؤكد حقيقة أن الخوف من العقاب ينجي من الوقوع في الذنب والنزوات التافهة، فهذا موقف يبرهن تجارب الشاعر الخصبة في زرع بذور الرفض عن ملذات الدنيا، فأتت أكلها من ثمار الزهد والترفع عن أخطاء ترنو إليها الأنفس وتنفرها عن المعاصي، فهذه الصورة الحسنة تعد من الصفات البارزة للذة(٤١). أما الشاعر ابن ليون التجيبي، فقد عبر هو الآخر عن ذلك الموقف الرافض للدنيا وملذاتها، فيقول:

إذا أمعنتَ في الدنيا اعتبارًا ... رأيتَ سرورها رهنَ انتخابِ
بعادٌ عن تدانٍ وافتقارٌ ... عن استغنا وشيبٌ عن شبابِ
حياةٌ كلها أضغاثُ حلمٍ ... وعيشٌ ظلهُ مثلُ السرابِ(٤٢)

المتأمل في هذه المقطوعة يجد أن رؤية الشاعر هنا تنطلق من موقف صادق ومؤمن بأن حياة الدنيا متقلبة ومتلونة، تريك سرروها المزيف، وحقيقتها آلام وأحزان، تذيقك وَهْم الغنى، ثم ترميك فقيرًا معدومًا، وما هي إلا أضغاث أحلام، وعيش مثل السراب، فحري بنا تركها والحذر منها(٤٣)

ويرى الشاعر أبو جعفر أحمد بن صفوان* (ت٧٦٣هـ) برفضه للدنيا وذمها، فهي دار الزوال والفناء لا البقاء، ولا يتمسك بها إلا الجاهل المغرور الذي يبحث عن اللذة الآنية التي لا تدوم، لهذا فهو رافض لها متألم من الطماعين نحو مراكبها، فيقول:

حديثُ الأمانِ في الحياةِ شجونُ إن أرضاكَ شأنٌ أحفظتكَ شُؤونُ

يميلُ إليها جاهلٌ بغرورها فمنهُ اشتياقٌ نحوها وأنينُ

تجافَ عن الدنيا ودِن باطِّراحِها فمَركَبِها بالمُطمعينَ حرونُ(٤٤)

وبلسان متمرد يصف أبو إسحاق التنوخي** (ت٧٢٦هـ) الدنيا بالجيفة القذرة بملذاتها، فيدعو ضمناً إلى تركها، لأن طالبها سيصيبه الألم، وحاله سيكون كحال الكلاب، فيقول:

دُنياك مهما اعتبرتَ فيها كجـــيفةٍ عرضةُ انتهابِ

إن شئتَها فاحتملْ أذاها واصـــبرْ عليها مع الكلابِ(٤٥)

ونرى الشاعر محمد بن سعد بن قاسم الأوسي***، يرفض ويحذر من الاغترار بطلب الدنيا؛ لأنه يراها فتنة تغري طالبها، لذا فهو يحث على ترك ملذاتها ورفضها، فهي زائلة مهما عظمت،

إياكَ من زهرةِ الدنيا وزينتها ولتنأَ عن ذا الدُنا مهما إليكَ دنا

وازهد إذا أمكنتْ من نفسها كرمًا فالزهدُ فيها يُريحُ النفسَ والبدنا(٤٦)

فالشاعر هنا يرسم صورة واضحة لرفضه الدنيا فهي خداعة بمباهجها ولذاتها، وأن لا ينغر الفرد وراء ملذاتها وشهواتها، لأنها مهما كانت زينتها وعظمت وكبرت عند البعض فهي في زوال ونهاية، ومما زاد من قوة البيتين التحذير والرفض من عدم التعلق بها وبمظاهرها الفانية، لأنها دار الغرور والزوال فتركها يريح النفس والبدن. فهذا الشاعر الشريف السبتي* (ت٧٦٠هـ) ، يدعو إلى رفض الدنيا وذمها، فهو يراها ندمًا وحسرة وألمًا لطالبها، ويحذر من الاغترار بها، فيقول:

دع الدنيا مذممة فليست لطالبها سوى ندمٍ وحسره(٤٧)

الخاتمة

بعد رحلة ممتعة لا تمل ولا منتهى للذتها آن لي أنْ لي أن تنتهي بحصاد لرحلة البحث، فقد توصلت إلى النتائج الآتية:

١. أدى الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي دوراً كبيراً في قلب ميزان المعادلة في عصر بني الأحمر عما كان عليه في العصور السابقة، فغدا الشاعر يتميز بالتمرد والخروج عن القود بصوت مدوي له أثره الواضح.

٢. لقد أخذ الشاعر الأندلسي يواجه التحديات والصراعات الداخلية والواقع المؤلم بفكر متحرر له لونه وإشعاعه الخاص اللذة وسبيلاً للتخفيف عن معاناته وآلامه.

٣. إنّ التمرد كان واضحاً في إشعاراً من خلال إغراقهم في اللذات وأسرفوا في مسلكها من خلال ضامين عدة تمثلت تارة في مجونهم من خلال الاستمتاع بمجالس المرح والأنس والخلاعة والخمر، وتارة ثانية للتحرر، من القيم الأخلاقية والإنسانية لمجتمعهم.

٤. مع كل ظاهر اللذة والخلاعة واللهو والمجون، وجد من يثور ويتمرد ويرفضها من بعض شعراء الأندلس ولا سيما الزهاد والمتصوفون الذين أعرضوا عن اللذات الدنيوية بمباهجها ومتعها، بلذة العقل الروحي التي لا تخرج عن جادة الصواب وحدود الأخلاق الإنسانية وقيم المجتمعات الكريمة.

هوامش البحث:

(١) العلاقة بين الضغوط النفسية والتمرد، خولة محمد زايد، رسالة ماجستير، كلية العلوم التربوية، جامعة مؤتة، ١٩٩٥م: ٧.

(٢) أثر بعض المتغيرات في التمرد النفسي، ميسون عبد خليفة سلمان، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٨م: ١٠.

(٣) ينظر: الانفعالات والاستجابات، دراسة في تكوين الذات، الدكتور محمد حسين طلعت، مكتبة النهضة المصرية، (د. ط)، (د. ت): ٧٨.

(٤) الإنسان المتمرد، البيركامي، ترجمة: نهاد رضا، منشورات ١٩٨٦م: ١٧.

(٥) البيركامي وأدب التمرد، كروكشانك، ترجمة: جلال العشري، ١٧.

(٦) ينظر: أصول نظرية نقد الشعر عند العرب ومدارات أخرى، الدكتور عناد غزوان١٠١.

(٧) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، الدكتور محمد زكي ١٩٨١م: ١٠١.

(٨) ينظر: البيركامي وأدب التمرد: ٧٧ – ١٠٠.

(٩) ديوان أبي حيان الأندلسي: ٣٢١.

(١٠) شخصية بشار، الدكتور محمد النويهي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥١م: ١٩٢.

(١١) شعر ابن جزي: ٣٩.

(١٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢٦٢/٢، وينظر: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ــ الظواهر، والقضايا، والأبنية، الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، ، ١٩٩٩م: ٤٣٢/١.

(١٣) المصدر نفسه: ٢٦٢/٢.

(١٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد الناصري، البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٥م: ١٠٢/٤.

(١٥) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مؤلف مجهول، تحقيق: الفريد البستاني، مطبعة الفنون، المغرب، (د. ت): ٢٠ – ٢١.

(١٦) المصدر نفسه: ٦.

(١٧) ديوان عبد الكريم القيسي: ٣٦٣- ٣٦٤.

(١٨) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، حيدر لازم مطلك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٧م: ٢٤٦.

(١٩) القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري: ٢٦٣/١، وينظر: روضة التعريف بالحب الشريف، ابن الخطيب، تحقيق: محمد الكناني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م: ٦٣٠/٢ – ٦٣١.

(٢٠) ديوان لسان الدين بن الخطيب: ٦٣٥/٢.

(٢١) ينظر: سيكولوجية الفكاهة والضحك، الدكتور زكريا إبراهيم، طبعة مصر، (د. ت): ١٠٦.

* أبو بكر محمد بن عبد الله بن منظور القيسي، وهو الذي ولي القضاء بجهات شتى من الأندلس وله مؤلفات جمة، ينظر: الكتيبة الكامنة: ١١٩.

(٢٢) المصدر نفسه: ١١٩.

(٢٣) ينظر: الزمن في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين حتى سقوط غرناطة، سلام عبد فياض حسن، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الأنبار، ٢٠٠٧م: ٣٨.

(٢٤) ديوان عبد الكريم القيسي: ٣١١.

(٢٥) المصدر نفسه: ٣٣٢.

(٢٦) المصدر نفسه: ١٢٧.

(٢٧) شعر ابن ليون التجيبي: ١٠٤.

(٢٨) شعر أبي البقاء الرندي: ٦٨٧.

(٢٩) ينظر: النزعة الفلسفية في الشعر الأندلسي، محمد جبار علوان الخزرجي، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٢م: ٥٠.

(٣٠) شعر أبي البقاء الرندي: ٦٨٧.

* أبو القاسم بن أحمد بن أبي العافية: هو الشيخ الكاتب وفارس ميدان البيان، وحامل لواء الإحسان لأهل هذا اللسان، وقد توفي قاضيًا ببرجة سنة ٧٤٥هـ، ينظر: الكتيبة الكامنة: ١٧٧، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، إشراف وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط١، ١٩٨٩م: ٩٣/١.

(٣١) الكتيبة الكامنة ١٨١.

(٣٢) ينظر: الشاعر العباسي بين نزعتي اللذة والألم حتى نهاية القرن الثالث الهجري: ١٦٦.

(٣٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب: ٢٢٢/١.

(٣٤) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: ٢٧٢ – ٢٧٣.

(٣٥) ديوان عبد الكريم القيسي: ٦٣.

* محمد بن الأزرق: هو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق، قاضي الجماعة بغرناطة، الملك، وروضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام. ينظر: نفح الطيب: ٦٩٩/٢.

(٣٦) نفح الطيب: ٢٩٨/٣ – ٢٩٩.

(٣٧) ديوان ابن فركون: ١٤٧.

(٣٨) ينظر: ديوان إبراهيم بن سهل الإشبيلي: ١٢٧.

(٣٩) ينظر: ديوان حازم القرطاجني: ٢٨.

(٤٠) ديوان ابن خاتمة الأنصاري: ١٢٩.

(٤١) ينظر: الصبر في شعر بني الأحمر دراسة فنية، محمد حسين جاسم العيساوي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة العراقية، ٢٠١٥م: ٥٨.

(٤٢) شعر ابن ليون التجيبي: ١٠٣.

(٤٣) ينظر: الوداع في الشعر الأندلسي عصري الموحدين وبني الأحمر دراسة موضوعية فنية، زياد طارق لفتة العبيدي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، الجامعة العراقية، ٢٠١٢م: ٢٠٨.

* أبو جعفر أحمد بن صفوان: هو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان، من أهل مالقة، يكنى أبا والحساب والأدب والتوثيق. ينظر: الإحاطة: ٢٢١/١ – ٢٢٢.

(٤٤) الإحاطة: ١/ ٢٢٥ – ٢٢٦.

** أبو إسحاق التنوخي: أصله من جزيرة طريف، رحل منها سنة ٦٧١هـ وحل بسبتة ثم عاد إلى ولقي قبولًا عظيمًا. ينظر: نيل الابتهاج: ٣٧، والكتيبة الكامنة: ٣٢.

(٤٥) الكتيبة الكامنة: ٣٣

*** هو القاضي محمد بن سعد بن قاسم الأوسي أبو عبد الله بن الفخار، تفنن من المعارف في الكامنة: ١١٧.

(٤٦) الكتيبة الكامنة: ١١٨.

* الشريف السبتي، هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن موسى انتقل إلى الأندلس في عنفوان شبابه واستقر في مالقة ثم عين قاضيًا فيها. ينظر: الإحاطة: ١١٠/٢، ونفح الطيب: ١٨٩/٥.

(٤٧) شعر الشريف السبتي، جمع ودراسة وتحقيق: محمد هيثم غرة، مجلة التراث العربي، إصدارات اتحاد كتاب وأدباء العرب، عدد٩٧، ٢٠٠٥م: ٢٣٨.